المحاضرة الخامسة : المدرسة الفرنسية للاستشراق :

بدأت علاقة الفرنسيين بالمسلمين منذ بداية وصول الفاتحين الى حدود فرنسا وتوغلهم فيها، ثم عبر الاندلس بعد ذلك عندما كانت ارض اسلامية، واثناء الحروب الصليبية التي كانت فرنسا راس الحربة فيها، وفي عام 1553 قام فرنسوا الأول بالمحاولات الفرنسية الأولى لتدريس العربية واللغات السامية الأخرى حيث أنشأ معهداً بباريس لتدريس العربية واليونانية واللغات السامية الأخرى، ثم جُدد بعد ذلك بداية القرن السادس عشر الميلادي، ومع نهاية القرن الثامن عشر ازداد اهتمام فرنسا بالشرق بإنشاء مدرسة اللغات الشرقية الحية سنة 1795م والتي رأسها المستشرق المشهور سلفستر دي ساسي، وفي عهد نابليون بونابرت بدأ المستشرقون الفرنسيون في دراسة علوم الشرق و آدابه وثقافته.

وقد نشط الاستشراق الفرنسي قبل الحملة الفرنسية على مصر وبعدها، فقد اصطحب نابليون معه عدداً كبيراً من العلماء في مختلف المجالات، وقد اهتز المسلون وانبهروا بالحضارة الغربية التي كانوا معزولين عنها في ظل الدولة العثمانية، واهتم هؤلاء العلماء بمختلف جوانب الحياة في مصر واصدروا كتاباً ضخما بعنوان: "وصف مصر"، واستمر اهتمام الفرنسيين بمصر بعد ذلك في عهد مصر علي باشا الذي كان أول من أرسل بعثات من الطلاب العرب الى اوروبا.

ونشير هنا الى أن الكثير من المفكرين قد اشروا الى دور تلك البعثات العلمية المرسلة الى اوروبا في التأثير على العالم الاسلامي ، ففرنسا كانت أول الدول الأوروبية التي اتخذت العلمانية منهج حياة، وان الفساد الأخلاقي كان ينتشر فيها أكثر من غيرها من الدول الأوروبية، ويذكر المنوني في كتابه المهم" يقظة المغرب العربي الحديث" أن المشرف على البعثة المغربية كتب إلى السلطات الفرنسية لتسمح للمبتعثين بالبقاء في فرنسا مدة من الزمن بعد انتهاء مهمتهم ليتشبعوا بالحضارة الفرنسية وعظمة فرنسا، ويقول المستشرق الإنجليزي برنارد لويس أن المعلمين الفرنسيين الذين بعثتهم فرنسا لتدريب الجيش التركي حملوا معهم كتبا مختارة في الأدب والفكر، كما إن الطلاب المبتعثين شُجّعوا على قراءة كتب الأدب والثقافة.

اما في الجزائر ففي القرن السابع عشر والثامن عشر وقبيل الاحتلال الفرنسي كان إهتمام الاوربيون ينصب على التراث المسيحي والاثار الرومانية والبيزنطية، ويمكن تقسيم الباحثين في مجال الاثار حسب بيار ماريزو إلى مجموعتين: الاولى هي المجموعات التابعة للدولة حيث يقوم الباحثين باعمال بحث رسمية بتكليف من الحكومات، اما المجموعة الثانية فتمثل العلماء المنفردين أو الذين هم ضمن مجموعات أكادمية مهتمة بالتاريخ الافريقي القديم، من بين هؤلاء نذكر جون أندري بيسونال الذي بحث في مجال النقوش اللاتينية.

بعد إحتلال فرنسا للجزائر اصبحت الجزائر قاعدة للبحوث حول شمال إفريقيا، فقد قام لويس فيليب مع قويزوت guizot بإنشاء سنة 1938 لجنة البحوث العلمية والتاريخية وقد وضعت تحت إشراف وزارة الحربية الفرنسية وكان العقيد بوري الجزائر أحد اعضاء اكادمية العلوم الفرنسية هو رئيسها المباشر ، وكانت أول مهمة هي القيام بحملة إكتشاف حيث قام مجموعة من العلماء من كل الفروع العلمية سنة 1839 تحت عنوان الاكتشاف العلمي للجزائر وقد نشرت العديد من المشورات العلمية، واتجهوا في نفس الوقت في البحث في ثلاثة مجالات وهي نشر الآثار القديمة عن الجزائر، إنشاء اللجان العلمية ومنح الرخص للأفراد للقيام بعلميات البحث والجمع والتعريف بالآثار التاريخية في البلاد، تكوين الجمعيات المختصة، والصحف والدوريات التي تحفظ المكتشفات التاريخية وتعتني وتعرف بها المهتمين.

وفي نطاق المجال الأول نشروا منذ عام 1830 كتب الرحالات والانطباعات التي كتبها الأوروبيون عن الجزائر خلال العهد العثماني، مثل "شيلروشو" و"بانانتي" و"رونودو" و"هايدو" و"فانتوردي بارادي"، كما نشروا غزوات عروج وخير الدين مترجمة عن النسخة العربية واهتموا (بالزهرة النيرة) وبالوثائق العربية لحملة شارل الخامس على الجزائر، وعادوا الى كتب المؤرخين والرحالة العرب وشرعوا أيضا في نشرها، جزئيا أو كليا كابن خلدون، والبكري والعياشي وحسن الوزان (ليون الأفريقي)، وغيرهم، ومن جهة أخرى نشروا مراسلات دايات الجزائر مع حكام فرنسا، ومذكرات وتقارير القناصل والجواسيس الفرنسيين أمثال دوبوا ، تانفيل، وبوتان وكيرسي واهتموا

بأرشيف الغرفة التجارية بمرسيليا وبتقارير الشركات الفرنسية التي توالت على ما كان يسمى (بحصن فرنسا)، وبالإضافة الى ذلك أبدوا عناية بالوثائق العثمانية التي وجدوها في الجزائر التي ضاع كثير منها ساعة الفوضى التي سادت دخولهم الجزائر.

كما نشروا دراسات هامة في عدة أجزاء عن الآثار والعلوم الطبيعية والفنون الجميلة والتاريخ وعلم السلالات، وكذلك قام العديد من الأفراد بالبحث ونشر أعمالهم في التاريخ المحلي، عن اللهجات، والطرق والنظم، وطبائع السكان، والزوايا، والحياة القبلية والمدن...

ومن ابرز المستشرقين الفرنسيين: **ليفي بروفنسال** الذي عمل استاذ بجامعة باريس وجامعة الجزائر والمدارس العليا بتونس والرباط، كما قدم محاضرات بكلية الآداب جامعة القاهرة وبالجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة، تخصص بالتراث العربي في اسبانيا، حقق عشرات المخطوطات، من اشهر تآلفيه تاريخ المسلمين بإسبانيا في ثلاثة اجزاء، كما ساهمك في دائرة المعارف الاسلامية بمادة عن الاندلس، وأنشأ مجلة أرابيكا الذي كان رئيس تحريرها وقد كانت ملتقى للمستشرقين الذين كتبوا عن تاريخ المسلمين.

ومن اشهرهم أيضا أما "**لويس ماسينون**" الذي خصص حياته للكتابة في الحلاج فجعله صورة من المسيح في الإسلام، وكان يميل الى دراسة التصوف بشكل كبير، والواقع ان كثير من المستشرقين الفرنسين اهتموا بالزوايا والتصوف اهتمام كبيراً وقاموا بتشجيعها، ولهم اغراض في ذلك فهم نشروا فكرة كون فرنسا في الجزائر قضاء وقدرا يجب الاقرار به وعدم مقامتها، حيث انتشر مصطلح "الله غالب" الذي لا يزال الجزائريون يتحدثون به الى اليوم، ولا شك ان للفرنسيين دورا في ذلك فقد قام ليون روش برجلة الى تونس ومصر والحجاز واتصل بعلماء تونس ومصر وعلماء مكة والمدينة واستغفل بعضهم فأعطوه فتوى تدعوا الجزائريين الى عدم مقاومة الاحتلال باعتباره قضاء وقدر يحب الرضى به.

نظرة الفرنسيين للتاريخ الجزائري :

مع بداية الاحتلال كان اهتمام المؤرخين الفرنسين في الجزائر على قضايا معينة في معظمها تدور في فلك استكشاف البلاد من كل الجوانب، وقد اطلق ابو القاسم سعد الله على هذه الفترة من الدراسات تسمية المؤرخين العسكريين، اما الفترة اللاحقة لغاية الاستقلال فقد سماها عهد المؤرخين الاختصاصين.

وبخصوص مراحل تاريخ الجزائري فحول الفترة العثمانية كان اهتمام الفرنسيين ينصب على محورين : **المحور الاول** هو كل ما تعلق بالحروب والغارات ولقرصنة والاتاوات والاسرى والهدايا التي قدمها الاوربيون، اما **المحور الثاني** فهو كل ما تعلق بالأسطول وتنظيمات الجيش وتعداده واسلحته ووضعية الدفاعات حول العاصمة وكذلك القدرات المالية وتنظيمات الحكومة وكذا علاقاتها الخارجية، بالإضافة الى الحالة الداخلية للبلاد والثورات والاضطرابات الداخلية وسياسية الدولة.

وفي الفترة اللاحقة ظهر عدد من المؤرخين الذين تناولوا تاريخ الجزائر الاقتصادي والسياسي والاداري خاصة بداية الاحتلال، ومنهم : بيليسي دي رينو، وكاريت، وهانوتو ، وديلاما روسلان، وبروسلا ، وفورونيل ، ولاكروا ، وبيربروجر وغيرهم.

تميزت الكتابات الفرنسية في أغلبها ببعدها عن الموضوعية وخدمتها للأغراض الكولونيالية والأهداف السياسية، إلى جانب اقتصارها على المصادر الغربية والتقارير الفرنسية مغفلة المصادر المحلية والعثمانية، فضلاً عن أنّها لم تغط كل الفترات التاريخية، وعلى الرغم من كل هذه المآخذ إلا أنّ الكتابات الفرنسية – مقارنة بالكثير بالكتابات الجزائرية – تتصف بغزارة مادتها وقربها إلى المنهج الحديث في كتابة التاريخ، وللاعتماد عليها يجب إخضاعها للتمحيص والنقد.

وموازاة مع البحث التاريخي نشط البحث الأثري في التنقيب عن الآثار وأُسِّست لذلك عدة جمعيات، غير أنّ كل هذه الجهود ركّزت على الآثار الرومانية دون الآثار الإسلامية التي تعود للدول التي حكمت أديم المغرب الأوسط خلال العصر الوسيط، كما كثرت الدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية واللسانية التي أعدّها المختصون الفرنسيون وخصوا بها المجتمع الأمازيغي، حيث يؤكد أنّ أغلب هذه البحوث ذات خلفية كولونيالية بحتة، لكننا في المقابل نشير إلى أنّ بعض هذه المجهودات كان لها

الأثر الإيجابي في المحافظة على جزء من تراثنا وخدمته والإسهام في الدفع بعلم الأنثروبولوجيا لاحقًا.

يمكن تلخيص موقف المستشرقين الفرنسيين من تاريخ الجزائر في مجموعة من العناصر :

– التشكيك في **شرعية السلطة العثمانية في الجزائر** وكذلك في فترات الحكم العربي السابقة كما يسمونها، وذلك بقولهم بحتمية سقوطها لان العرب كانوا وسيضلون عاجزين عن المحافظة على تنظيم سياسي لان الفوضى تبدو وكأنها عامل طبيعي في حياتهم.

– كان معظم المؤرخين الفرنسيون يعملون في **خدمة الاستعمار** في الجزائر ومنهم : مارسي، وريني باسي، ودوتي، وجورج افير، واسكيرا، وماسون، ومارسيل اميريت، وياكونو، وشارل اندري جوليان، ومانصو، وكانيا، وديل.

وكانت المواضيع المعالجة متنوعة من الدراسات اللغوية واللهجات المحلية الاجتماعية وتاريخ افريقيا القديم، والنواحي الاقتصادية للأهالي، ونشر المراسلات ومذكرات العهد الفرنسي ...

– معظم المواضيع التي عالجها الفرنسيون تتعلق **بالدراسات اللغوية واللهجات المحلية، والابحاث الاجتماعية والتاريخ القديم،** وبعض النواحي الاجتماعية والاقتصادية للأهالي.

وفي فترة الثمانينيات من القرن التاسع عشر بدأت الدراسات التاريخية الفرنسية تتجه نحو الابحاث المتخصصة، وكانت هذه الابحاث تحضي بدعم من السلطات لان هؤلاء المؤرخين كانوا يخدمون السياسة الاستعمارية وتوفير التبرير التاريخي للوجود الفرنسي في الجزائر.

كان **الاهتمام كبيرا بالتاريخ القديم** خاصة التواجد الروماني في المنطقة فقد كانت السلطات الاستعمارية تشجع مثل هذه الدراسات وتشجع حملات البحث الاثري عن الاثار الرومانية والمدن الرومانية وكذلك النقوش اللاتينية، لان الفرنسيون كانوا يبحثون عن تبرير تاريخي لوجودهم في الجزائر لكونهم ورثة الامبراطورية الرومانية، وبالموازاة مع ذلك اتجه الباحثون الفرنسيون الى الدراسات الأنثروبولوجية واللغوية

والهدف هو اثبات ان الأمازيغ مختلفين عن العرب وان لهم تاريخ عريق مرتبط بالرومان، وانطلقت **الدراسات الانثروبولوجية** في دراسة الانسان الامازيغي خاصة في منطقة القبائل وتوصلت الابحاث الى ان اخلاقهم وطبيعتهم قريبة من الاوربيين وادخلت في اذهان الكثير من سكان منطقة القبائل انهم افضل من العرب وانهم مختلفين كليا عنهم في العادات والتقاليد، واستحدثوا **مصطلح الشعب القبائلي،** والهدف هو بث الافكار الانفصالية في اذهان السكان والتي ظهرت بعض اثارها فيما بعد .

ومع بداية القرن العشرين توسعت الدراسات التاريخية واختصت اكثر بالتاريخ الاسلامي بتحقيق المئات من المخطوطات خاصة بعد أصبح **شارل جونار** حاكما عام في الجزائر وقاد بتشجيع دراسة التراث الاسلامي في الجزائر، وقد كان المستشرقين في السابق يتشككون في مصداقية المصادر العربية، وقد دعا الكثير منهم الى عدم الاستعانة بها، والاستعانة بما كتبه المؤرخين الاوربيون ووثائق السلطة العثمانية في الجزائر، وفي ذلك يذكر ابو القاسم سعد الله أنه رغم بحث الفرنسيين عن المصادر الاهلية فانهم كثيرا ما شككوا في قيمتها واتهموها بالتجريدية والمبالغة، بل نادى بعضهم بعدم الاعتماد عليها.

والملاحظ ان أغلب الدراسات المعاصرة لم تختلف **نظرتهم للمصادر الاهلية** ، فقد كانوا يعتمدون على مصادرهم الغربية المتمثلة في شهادات الاسرى وتقارير القناصل، حيث ذكر جون ب وولف: " كل من يرغب في كتابة تاريخ عام عن ايالة الجزائر التركية البحرية سيكون مدينا كثيرا للأشخاص الذين عاشوا في الجزائر وكتبوا عن تجربتهم بالإضافة الى مسؤولي الدول الاوربية الذين أردوا ان يبقوا حكوماتهم على اطلاع على الاحوال والمشاكل..." ، كما نلاحظ وجود تناقض في الدراسات الفرنسية حول الجزائر فهي تارة تعتبر حكام الجزائر ملوك عندما قدم حكام الجزائر مساعدات لفرنسا خاصة عندما صالح ريس السواحل الاسبانية، وتارة اخرى تصفهم بالقراصنة وتبرر احتلال الجزائر.

ومن المواضيع التي وقفو عندها في الدراسة واتخذوا موقفا مشبها، **انتشار الاسلام في شمال افريقيا،** وكانوا يطلقون تسميات الاسلام الجزائري والاسلام والمغربي

وبالتالي التشكيك في عقيدة السكان، اما بالنسبة للمقاومة فهم لا يعيدونها الى الروح الوطنية والنفور من حكم الاجنبي ولكن لضيق الافق والتعصب الديني على حد زعمهم، فقد كانوا يسعون للحط من الدور الوطني لقادة **المقاومة خاصة الامير عبد القادر** .

كما كانوا يعتبرون قادة المقاومة بمثابة رجال دين لا يفقون شيئا في امور الدنيا وخاصة امور الحرب والقتال، ومنهم من يعتبره فلسفوف ومجدد في الدين، وقد انكر بعضهم مقاومته للاستعمار فالمستشرق الفرنسي جاك بيرك في كتابه "داخل المغرب"، كتب: ان الامير لم يعرف قط كمقاوم عنيد للغزو الاستعماري، وانما عرف كمفكر وكاتب ماهر ...، كما اعتبره رائد النهضة العربية.

الكثير من المستشرقين كانوا يقومون بدور استخباراتي ضد قادة المقاومة وعلى رأسهم الامير عبد القادر ومن بين هؤلاء المستشرقين ليون روش*، كما ان بيار باربروجر كان يخدم الاحتلال فقد قال: "اننا نريد ان نعمل في نطاق المستعمرة وفي نطاق الوطن الام، نريد ان نطور عواطف الجنسية والتي تجعلنا ننظر الى افريقيا كوطننا الثاني ..." .

---

* ليون روش ولد في غرونوبل بفرنسا سنة 1809 وتوفي سنة 1901 تميز بحبه للمغامرة غادر مع ابيه الى الجزائر حيث عاش هناك لبعض الوقت، قبل ان يقدمه والد الى الدوق دي روفيقو حاكم الجزائر العام آنذاك فعين ملازم في فرقة الخيالة ، واستطاع تعلم العربية بسرعة وتوطدت علاقته مع بعض الاعيان، ثم لاحقا عينه الجنرال كلوزال مترجما رئيسا في الجيش الافريقي، وبين 1837 و 1839 التحق بجيش الامير عبد القادر وكان قبل ذلك قد جمع معلومات مهمة على الامير عبد القادر، واعلن اسلامه في البليدة ، وقد ذكر في كتابه انه انما اعتنق الاسلام لأجل التقرب من الامير ويجعل منه حليفا لفرنسا وفي الاخير يؤدي به الى استسلام الجزائريين لفرنسا ، وكان يتجسس على الامير ويرسل كل المعلومات عن تحركاته وجميع احواله العسكرية والسياسية الى الجيش الفرنسي، وقد عينه الامير كاتبا له ومستشارا واتخذه رفيقا وكلفه بمراقبة مسائل الجيش، وقد حاول روش زرع الفتنة بين افراد جيش الامير خاص من الكراغلة، وعندما ارسله الامير الى محمد بن احمد بن سالم التيجاني لدعوته الى جمع كلمة المسلمين فعل عكس ذلك بل نصحه بالصمود في وجه الامير ومقاومته، واقنع الامير بان يمنحه مهمة تفتيش مصانع السلاح والذخيرة فعمل على تخريبها بمساعدة الفارين الفرنسيين الذين كانوا في خدمة الامير، كما كان يخادع الامير حول صناعة السلاح فقد جعل المصانع بدون فائدة ، بعد ذلك استغل غياب الامير ففر الى وهران اخذا معه عدة خرائط مهمة وبذلك نفذ مهمته على احسن وجه كجاسوس في جيش الامير، للمزيد حول اعمال ليون روش في اضعاف مقاومة الامير عبد القادر .

كما ينظر المؤرخون الاوربيون **الى الجهاد البحري على انه قرصنة** ويدعون انه المصدر الوحيد لأموال الخزينة، حيث ذكر هنري بروجينارت مؤلف كتاب القراصنة والحرب البحرية: "انه بالنسبة للجزائر المصدر الوحيد للغنى تقريبا هو ما يعرف بالجهاد، وكانت مهمة السفن الجزائرية هي غيداء العدو الوهمي والمبتدع اسبانيا، ومن أجل ذلك كان ينبغي تحطيم تجارتها وسلب سواحلها"، وهنا هو يضع الجزائر مجرد طرف ثانوي مصيرها متعلق بالحرب العثمانية الاسبانية، ويصف احد المصادر من طرق الغربين الجزائر في العهد العثماني: "كان البحر دائما مغطى بالقراصنة الاتراك والبربر الذي قاموا بتخريب عظيم وقسوة لا تصدق" ، وهذا المؤرخ هو الاب دان الذي الف كتاب عن تاريخ بلاد البربر وقراصنتها Histoire de Barbarie et de ces Corsaire وبشكل عام نقول انهم يصفون الجزائريين بالقرصنة والقسوة واللصوصية والعبودية.

ومن جهة ثانية يركز المؤرخون الاوربيون **على المعاملة القاسية للأسري** في الجزائر ويذكرون اعداد قد تكون مبالغ فيها، حيث ذكر روبرت ديفيس أن عدد الاسرى الأوربيين في الجزائر بلغ حوالي 850 ألف اسير بين 1580 و 1680، ويرى المؤرخون الاوربيون ان الحرية الدينة في الجزائر كانت معدومة حيث كان يفرض على المسيحين الدخول في الاسلام مقابل امتيازات كبيرة، في حين الباقون على مسيحتيهم كانوا يشتغلون في المهن الحقيرة الى غاية افتدائهم او الهرب، لكن هذه المعلومات غير صحيحة حيث ذكر احد الكتاب الأوربيين ان هناك ثلاث معابد كانت مخصصة للديانة المسيحية، وان الاسرى المسيحيون كان لهم الحرية في تأدية عبادتهم الدينية، ومن جهة ثانية كان الكثير من الاوربيون يترقون في المناصب حتى اصبح احدهم قائدا للأسطول العثماني مثل علج علي وحسن آغا وعلى بتشين ومراد ريس وحسن فزينيانو وغيرهم .

والجدير بالذكر ان المعلومات التي تتحدث عن **معاملة النساء** هي معلومات مغلوطة حيث ذكر روبرت ديفيس وجوزيف مورغان، المرأة بمجرد ان يتم اسرها تأخذ الى قصر الداي لتصبح من حريم الباشا، حيث انها كثيرا ما تحول الى الاسلام وتبقى هناك مع ابنائها، ويتم وصف المسؤولين الجزائرية وصفا خاطئا حيث نقل

الاب دان وصفا للقاضي بانه يملك احدى عشر زوجة وثلاثين خليلة، وبالطبع هذا غير صحيح فالإسلام لا يجيز اكثر من اربع زوجات، كما تحدثت مصادر اخرى عن تعذيب الاسرى، والهدف هو تشويه صورة الجزائر، وتوفير التبرير لغزوها لتخليص المسيحين من العذاب، ولا شكان هذه الاخبار المغرضة التي نقلها المؤرخون الغربيون عن الجزائر العثمانية كانت تحضي بدعم الكنيسة ومباركتها.